المحاضرة02:فن المقالة

تمهيد:

تواضع رجال النقد على أن يطلقوا كلمة "مقال" على كل ضروب الكتابة النثرية إن قصر طولها وعالجت موضوعا واحدا، ولعل العوامل التي أدت إلى النهضة الفكرية والاجتماعية والسياسية، كانت هي نفسها التي أدت إلى تطور هذا الفن النثري، وتضافرت على توجيهه وجهة جديدة تتفق ومسار التطور في البيئات العربية الحديثة وما تنطوي عليه من مقدمات للوحدة وعناصر التنوع، وفن المقالة في العصر الحديث لم ينفصل عن الجذور التراثية، كما لم يتصادم والمعطى الغربي، مع تميزه وتطوره وامتزاجه بكثير من المؤثرات الثقافية والفكرية.

أولا - مفهوم المقالة.

1- لغة: لفظ "المقال" من الناحية اللغوية مشتق من مادة القول: قال يقول، قولا، قيلا، وقولة، ومقالا ومقالة. ومن أصدق قولا ممن دعا إلى الله[i]، وكذلك قول الشاعر:

"مقالة" السوء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل.
ومن دعا الناس إلى ذمة ذهوه بالحق وبالباطل.

فالمدلول الحسي لهذا اللفظ هو القول، وهذا ما تقف عنده في معلقة النابغة حين يعتذر إلى النعمان:

"مقالة" أن قد قلت: سوف أنا له وذلك من تلقاء مثلك رائع[ii].

وفي القاموس المحيط: «القول/ الكلام أو كل لفظ مذل به اللسان تاما أو ناقصا، والجمع أقوال وجمع الجمع أقاويل... أو القول في الخير والقال والقيل والقالة في الشر،أو قال قولا وقولة، ومقالا فيهما».[iii]

وورد في مختار الصحاح« قال يقول قولا وقولة ومقالا ومقالة، ويقال كثير القيل والقال. وفي الحديث: "نهى عن قيل وقال"، وهما اسمان وكذا القالة، يقال: كثرت قالة الناس، ويقالقو ّ له ما لم يقله تقويلا، وأقوله ما لم يقل أي أدعاه عليه، وتقو ّ ل عليه كذب عليه، واقتال عليه تحكم، وقاوله في أمر ه تقاولا أي تفاوضا، وجاء: اقتال بمعنى قال»[iv]، وعليه فإن المعنى اللغوي للمقالة لا يعدو أنها شيء يقال، وهي من القول والقولة وجمعها مقالات، وهي مصدر ميمي ولقد وردت اللفظة في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف، وكذلك الشعر الجاهلي.

2- اصطلاحا: يصف هـ.ب تشارلتن المقالة بأنها «في صميمها قصيدة وجدانية سيقت نثرا، لتتسع مالا يتسع له الشعر المنظوم... فإن شئت قانونا يضبط لك "المقالة" من حيث الصورة، فاعلم أنه قدرتها على التعبير عن خوالج النفس في سيرها الذي لا يجري على نظام واضطراد»[v]، وهذا يوحي بأن تشارلتن يذهب إلى أن المقالة قد تكون نظما، ولذلك أمثلة قليلة، نجدها في العمود الشعري.

وهو المفهوم الذي يطرحه هيدوو كرجين حين يعرفها بقوله: «إن المقالة الأدبية تشبه القصيدة في الشعر الغنائي بأنها مبنية حول خاطر من الخواطر، لا يكاد الخاطر أن يتكون ويملك لب الكاتب، حتى تتكون حوله المقالة من أولها لآخرها، كما تتكون كرة الحرير حول دودة القز»[vi].

ويعرفها عباس محمود العقاد بأنها «قطعة نثرية موجزة محتفل بها موضوع يستوفيه الكاتب أو ينجمه على مقالات تستوعب الواحدة جانبامنه، في أسلوب حسن، وعبارة بليغة، وألفاظ منتقاة، وتعبر عن وجهة نظر كاتبها»[vii]، فالمقالة إذن تكتب نثرا في الأغلب الأعم وهي موجزة الطول تعبر عن رؤية الكاتب للحياة أو الأحداث بلغة سلسة وأسلوب جذاب حسن.

ويقول زكي المحاسني: «المقالة كتاب صغير، وهي حقا كذلك لأنها ينبغي أن تحتوي على فكرة مختصرة في صفحات محدودة، كرأي يريد صاحبه عرضه على الناس، ويشترط في المقالة أن تهدف إلى غرض، وأن تنتهي إليه، مكتوبة بلغة سليمة، وفكر منير، إذ المقصود منها التقريب، لا الإبعاد»[viii]، وعلى ضوء هذا فإن البحث العلمي القصير مقالة، لأنه يحتوي فكرة مختصرة، هدفها إقناع القراء لتقبلها، وذلك بلغة سليمة تقرب الفهم ولا تبعده.

بناء على ما تقدم نفهم أن المقالة قطعة نثرية محدودة الطول والموضوع تكتب بطريقة عفوية سريعة يعتمد فيها الكاتب على شخصيته وفكره، وتقوم في أساسها على الوضوح والتر كيز والدقة، كما تعالج موضوعا معينا، أو ملاحظة الحياة وتدبر معانيها وظواهرها، وتبحث في العلم أو الأدب أو السياسية أو الاجتماع... وغير ذلك.

ثانيا- نشأة فن المقالة.

فن المقالة من فنون النثر العربي المستحدثة، وإن كان بعض الكتاب يرى بأنها امتداد لأشكال النثر العربي التقليدية مثل الرسالة*، والخطب، والمقامات والفصول، والرأي الآخر يرى أننا أخذنا المقالة عن الغربيين، وقد أنشأتها عندهم ضرورات الحياة العصرية والصحفية، فهي «لا تخاطب طبقة رفيعة في الأمة، وإنما تخاطب طبقات الأمة على اختلافها، وهي لذلك لا تتعمق في التفكير حتى تفهمها الطبقات الدنيا، وهي أيضا لا تلتمس الزخرف اللفظي، حتى تكون قريبة من الشعب وذوقه الذي لا يتكلف الزينة، والذي يؤثر البساطة والجمال الفطري، ومن أجل ذلك لم يكد أدباؤنا يكثرون من كتابتها بالصحف في أواسط القرن الماضي، أو بعبارة أدق في ثلثه الأخير، حتى اضطروا إلى أن ينبذوا لفائف البديع وثياب السجع وبهارجه الزائفة.»[ix]

ولقد تضافرت مجموعة من العوامل بالإضافة إلى انتشار الصحافة في ازدهارها المقالة في الأدب العربي الحديث، أهمها:[x]

1- الإحساس بضرورة التغيير مما نتج عنه غليان المشكلات السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية.
2- التأثر بالمذاهب والاتجاهات والأفكار القادمة من الغرب.
3- نشوء المجلات وقدرتها على استيعاب المقالة الذاتية والموضوعية مع اختلاف مضامينها.

4- ظهور الأحزاب السياسية والتيارات الفكرية.

5- حركة تأسيس المدارس والكليات ونفوذ التأثير الأوروبي في سواحل الشام.

6- نشاط الحركة الاستعمارية في أقطار المغرب العربي.

ويرى بعض النقاد أن المقالة ظهرت بظهور الصحافة، فقد نشأت في حضن الصحافة، واستمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورها، وخدمت أغراضها المختلفة، وحملت إلى قرائها آراء محرريها وكتابها[xi]، ولقد مرت المقالة الأدبية العربية الحديثة في تطورها بعدة مراحل، أهمها ما يأتي:

1- مرحلة البداية: ويمكن أن نسميها مرحلة النشأة من بداية القرن التاسع عشر، وهي المرحلة التي نشأت فيها الصحافة، وظهر مجموعة من الكتاب* ممن نشروا مقالاتهم في "الوقائع المصرية" و"وادي النيل" و"الوطن" و"روضة الأخبار" و"مرآة الشرق"... وغيرها من الصحف العربية التي ذاع صيتها آنذاك.

ولقد كانت المقالة في هذه المرحلة فجة، وأسلوبها أقرب إلى أساليب عصر الانحطاط، فهو «يزهو بالسجع الغث، والمحسنات البديعية، والزخارف المتكلفة الممجوجة، وقد كانت الشؤون السياسية هي الموضوع الأول لهذه المقالات، ولكن الكتاب كانوا أحيانا يعرضون لبعض الشؤون الاجتماعية والتعليمية»[xii] ولقد استمرت هذه المرحلة إلى قيام الثورة العربية نهاية القرن التاسع عشر.

2- مرحلة التطور: تمتد هذه المرحلة من مطلع القرن العشرين، ويسميها عمر الدسوقي "مدرسة جمال الدين الأفغاني" لأن جل كتابها وأعلامها تتلمذوا على يده*، ولقد ظهرت هذه المدرسة وسط أحداث كثيرة أهمها:

أ- حركة التنوير التي بدأت مع حملة نابليون على مصر.

ب- ظهور "محمد علي" والتلاحم مع الثقافة الأوروبية.

ج- مجيء "جمال الدين الأفغاني" إلى مصر، واستمرار تدفق السوريين على مصر، مما أسهم في ظهور المدرسة السورية المتمصرة، ونهضة الأزهر.

د- حركة الدستور، وظهور مجالس شورى النواب وشورى القوانين.

هـ- حركة المقاومة التي تهدف إلى التخلص من العنصر التركي والنفوذ الأوروبي على حد سواء.[xiii]

والمتأمل في نتاج هذه المرحلة يجد روادها قد خطوا بالأسلوب الأدبي خطوة جبارة، فخلصوه من قيود السجع والصنعة، وأطلقوه حرا بسيطا، يحمل من الأفكار والمعاني الكثير، ويناقش قضايا المجتمع في مختلف شؤونه،كما ظهر أثر الأسلوب القرآني وأسلوب المقامات عند معظمهم.

3- مرحلة المقالة الحديثة: وتمتد من نهاية الحرب العالمية الأولى (1919م) وتستمر خمسين عاما تقريبا حتى عام (1967م)، ولقد نشأت المقالة الحديثة بتأثير الاستعمار البريطاني على الشعب المصري، والذي عمل على تعطيل الصحف التي كانت موالية للثورة العربية، كما قام بنفي الزعماء مثل "محمد عبدو"، وهذه السلوكيات والتغيرات ساعدت في تطوير فن المقالة وازدهارها[xiv]، كما شهدت ميلاد المجلات الأدبية مثل "الرسالة" و"الثقافة"

و"الكتاب" و"الكاتب المصري" في مصر، و"الأديب" و"الآداب" في لبنان، و"المنهل" في السعودية و"الحكمة" في اليمن، و"الفكر" في تونس... وغيرها.

ويمثل هذه المرحلة "وحي الرسالة" وهو كتاب في عدة مجلدات يضم الافتتاحية التي كان يكتبها أحمد حسن الزيات في مجلة "الرسالة" في صدورها الأول، و"أباطيل وأسمار" لمحمود محمد شاكر الذي يضم مقالات له نشرها في مجلة "الرسالة" في إصدارها الثاني، ويكشف فيها الزيف الثقافي الذي استشرى في هذه الفترة،[xv] والتي شهدت بروز أسماء* كثيرة وفي دول عربية مختلفة أهمها مصر.

وامتازت المقالات في هذه المرحلة بظهور الذاتية العاطفية، وميلها إلى المقال القصصي مع طغيان الاتجاه السياسي والدعوة إلى التحرر، وبالتالي غلبة الروح الحماسية عند أصحابها التي أدت إلى تعددية المواضيع التي كانت تميل إلى الثقافة العامة من أجل تربية الناس وأذواقهم وعقولهم وبالتالي أخلاقهم.

4- مرحلة المقالة الصحفية: كان لهزيمة 1967م الأثر البالغ في تغيير كثير من الفنون الأدبية وتحولها وكانت المقالة من هذه الفنون حيث تخلت المقالة الأدبية عن الواجهة، وأفسحت المجال للمقالة السياسية والمقالة الاجتماعية والمقالة الفلسفية... الخ[xvi]، فأصبحت الريادة للأسلوب الصحفي، الذي يعنى بقصر العبارة والاهتمام بالمعنى مع خلوها من المحسنات بمختلف أنواعها، ولقد نهض جيل المقال الصحفي* متميزا بالدقة والتركيز، حيث استطاع أن يغذي العربية بجديد الفكر والأساليب، ووضعوا فن المقالة في مكانه من فنون القول، وهي الكلام المطبوع في الاتصال الصحفي بالجماهير.

مما سبق يتضح أن نشأة المقالة في الأدب العربي الحديث وتطورها كان مرتبطا بالاتصال بالغرب والاطلاع على آدابه، كما كان مرتبطا بالصحافة التي يرجع إليها الفضل في تطور أسلوب المقالة العربية وذلك على النحو الآتي.[xvii]

1- التخلص من الزخرف والمحسنات البديعية وما انحدرت إليه اللغة في العصور المتأخرة من ولع بالزخارف اللفظية والسجع والترادف والحشو والمجاز.

2- الوضوح في الفكرة والترسل والتركيز.

3- الدقة في استعمال الألفاظ وتخصيص الألفاظ بمعانيها المحددة والخروج من الميوعة والتعميم.

4- التخلص من آفة التجميع، فاللغة عملية تربوية كبرى، ولقد ساهمت الصحافة أيضا في تخلص الأمة من النقلية والتقبلية إلى العقلية الاجتهادية، بتحرير عقل المثقف العربي من أغلال الذاكرة وإهمالها وما غرست في فكرها من المفاهيم الخاطئة إلى عقلية متنورة معبرة عن ذاته تعيش في زمانه وواقعه، وتتطلع إلى مستقبل مشرق في ظل العلم والثقافة السليمة.

وبذلك عكست المقالة واقع المجتمع العربي وسارت جنبا إلى جنب مع خطوات النهضة العربية الحديثة وتسارعت خطاها في جل الدول العربية لتعبر عن خلاصة أفكار المثقفين العرب وتطلعاتهم، وتحليل مظاهر الحياة المعاصرة وتناولها بالنقد حتى تأخذ طابعا جماعيا لا فرديا.